

محاضرة «نظريات الاتصال»

المرحلة الثانية

إعداد: م.د حسين مراد كاظم

نموذج التأثير المحدود للإعلام.

نظرية سريان المعلومات على مرحلتين:

مرت فرضية الباحث (بول لازرسفلد) المعروفة بفرضية سريان المعلومات على مرحلتين بتطورات مختلفة، حتى تم الاعتراف بها نهائياً في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي كنظرية معتمدة موازية في أهميتها لنظرية الرصاصة الإعلامية، والتي اثبت البحث عدم دقتها أو مناسبتها لجميع الأوضاع الاتصالية.

وعلى عكس ما فعله علماء النفس، فإن علماء الاجتماع لم ينظروا الى الانسان كفرد منفصل عن الآخرين لا يمت لهم بصلة أو بروابط اجتماعية. لقد رأى علماء الاجتماع في الفرد انسانا يعيش مع الآخرين ويتفاعل معهم، ويختلط بهم متأثراً بالمحيط الاجتماعي وما فيه من مؤثرات، ومنها وسائل الاعلام.

إن هذا الإنموذج الاتصالي يرفض فكرة تأثير الصحافة المباشر والمتسلط لمصلحة فكرة الجمهور النشط، فالصحافة لا تفرض محتوياتها، ويمكن مقارنتها بلائحة الطعام في المطاعم لأنها تعرض العديد من الآفاق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تنشط برامج المناقشات: قلم واحد يكفي لتحريك ملايين الألسن والاتصال بين الاشخاص لا يمكن اختزاله في الاتصال عبر وسائل الإعلام، لأن الصحافة تغذي المحادثات التي تجري مسبقاً، وتجمع من دون كلل الاشخاص والمجموعات الاجتماعية والمحادثة هي مصدر الآراء الفردية، وأن تأثير المحادثة وجها لوجه أكثر نجاعة من كل تأثير، وتفضي إلى تشكل الأفكار المهيمنة، وهكذا نجد الآراء تتشكل في مسار المحادثات، مما يؤكد أهمية تأثير الوسط الاجتماعي.

لقد أظهرت الدراسة التي اجراها (لازرسفيلد) وفريقه من علماء الاجتماع، حول انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٤٠ وجود أنماط منتظمة بشأن تعرض الناس للأعلام. ومن هذه الأنماط أن فئات الناس التي أظهرت اهتماما بما أوردته الصحف والمجلات والاذاعات عرفوا عن أمور الحملة الانتخابية أكثر من الفئات التي لم تتعرض لأوسائل الاعلام وتبين أيضا أن الذين تعرضوا لمصدر اعلامي واحد (كصحيفة مثلا) أبدوا استعدادا للتعرض لمصادر إعلامية أخرى. كما اكتشف فريق البحث، أن غالبية الناس كانت قد توصلت إلى اتخاذ قرار بشأن من سينتخبون في وقت مبكر من الحملة الانتخابية. ومن هذا استنتج الباحثون أن تأثير الاعلام كان محدودا.

كذلك تبين للباحثين أن فئة أخرى من الناس وجهت انتباهها للأعلام بشكل انتقائي (اختياري)، اذ تبين أن هؤلاء قاموا بالبحث والتعرض للمعلومات المؤيدة لمرشحهم، وتجنبوا تلك التي تعارضه أو تطعن فيه وأخيرا، فإن الأمر الذي بدا انه ملفت للانتباه أكثر من غيره، هو الدور المهم الذي لعبه الاتصال الوجيه (المواجهي) أي الاتصال بالجيران والأصدقاء والزملاء بالعمل، في تكوين قرار الناخبين الأخير بشأن الشخص الذي سينتخبون. واستنتج الباحثون من هذا أن الاتصال الوجيه لم يكن عشوائيا بل كانت تحكمه قاعدة عامة. لقد ظهر أن أسماء قلة من الناس تكرر ذكرها باستمرار أكثر من غيرها، كانت مصدرا مهما للمعلومات ومن ثم للتأثير. وقد أطلق على هؤلاء الأشخاص لقب (قادة الرأي) لأهمية الدور الذي قاموا به في تشكيل الرأي النهائي عند الذين اتصلوا بهم في دوائرهم.

ولم يكن هؤلاء القادة الذين كشف البحث عنهم بالقادة التقليديين، كالمعلمين ورجال الاعمال او المسؤولين الحكوميين، بل تميزوا باطلاعهم الواسع ومعرفتهم للأمر العامة عن طريق تعرضهم الكثيف لوسائل الاعلام بصورة ميزتهم عن غيرهم.

هذه الحقائق جعلت لازرسفيلد وفريق بحثه يقدمون فرضيتهم والتي سميت بفرضية سريان المعلومات على مرحلتين أي ان المعلومات والأفكار غالبا ما تسري من وسائل الاتصال ال قادة الرأي في المجتمع، ومن القادة الى الناس الأقل نشاطا أي عموم الناس الذين لا يبدون اهتماما كبيرا بالاعلام. وقد استنتج الباحثون ان تأثير الاعلام هو تأثير غير مباشر تضعف قوته بسبب قادة الرأي المحليين الذين يلعبون دورا رئيسا في التأثير على من يتصل بهم من الناس الذين لا يبدون اهتماما مماثلا بالتعرض للاعلام.

وعلى الرغم من الأبحاث الكثيرة التي أجريت لأثبات نظرية سريان المعلومات على مرحلتين، الا ان هذه النظرية عجزت عن مواجهة النقد المتزايد لها، وخاصة بعد أن تبين للباحثين أن ما يقدم الناس على تداوله من معلومات هو فقط جزء صغير لا يكاد يذكر من المعلومات التي تبثها وتنتشرها وسائل الاعلام. كما تبين أيضا أن المعلومات التي يتناقلها الناس عادة ويتحدثون عنها هي تلك المعلومات التي تحمل انباء خطيرة (كاغتيال زعيم) أو تلك التي تحمل معلومات غير مهمة تزوج الفنان الفلاني أمس. ثم قام باحثون آخرون بتعديل فرضية لازرسفيلد وقالوا بأن المعلومات تسري في المرحلة التمهيديّة من وسائل الاعلام الى الناس، ويتلو ذلك حدوث التأثير في مرحلة لاحقة حين يقوم الناس بمناقشة الأمر مع بعضهم، فيكونون رأيهم النهائي في الموضوع هذا الرأي الذي سيؤثر على سلوكهم لاحقا.

نموذج التأثير المحدود للإعلام وعلاقته بالعوامل الانتقائية (الوسيلة)

لقد جاء التحول من نظرية الطلقة السحرية التي تفترض التأثير المباشر لوسائل الاعلام على افراد الجمهور، الى مفهوم التأثير الانتقائي التي تبحث في الآثار غير المباشرة لوسائل الاعلام، ليمثل تحولا من مفاهيم بسيطة نسبيا الى مفاهيم مركبة، فبدلا من افتراض المثير الاستجابة في الحالة الأولى، أصبح ينظر الى وجود مغيرات وعوامل وسيطة متداخلة بين المنبه أو المثير) و (الاستجابة تتمثل في كل من العوامل النفسية والاجتماعية التي تميز الافراد وتتحكم في تأثرهم وتفسيراتهم للرسائل الإعلامية.

وقد اعتمدت معظم النظريات النفسية - الاجتماعية التي ظهرت بهذا الصدد، المفهوم الذي قدمه الباحث الأمريكي جوزيف كلابر عام ١٩٦٠ للعوامل الوسيطة وهو ان الناس يعرضون أنفسهم لوسائل الاعلام او يتجنبوها طبقا لمدى اتفاق المواد الإعلامية او تعارضها مع اراء واهتمامات هؤلاء الناس. كما أن قوة وسائل الاعلام والاتصال وتأثيرها يجب أن ينظر إليه دوما من خلال العمليات الانتقائية. ورأى أن العمليات الانتقائية تكون عوامل وسيطة في عملية الاتصال وتحد من تأثيرها. وتتمثل العوامل الوسيطة بالآتي:

١- التعرض الانتقائي: ويتمثل بانتقاء الناس لما يقرأون أو يستمعون او يشاهدون، إذ يميل الناس للتعرض للرسائل التي تتوافق مع ميولهم واتجاهاتهم واهتماماتهم، ويتجنبون تلك الرسائل التي لا تخاطب هذه الاتجاهات والاهتمامات او تولد تنافرا في نظامهم المعرفي. فالناس يبحثون عن المعلومات التي تتفق مع مخزونهم المعرفي، فيعترضون لها، ويتجنبون تلك المعلومات التي تتعارض مع أفكارهم ومواقفهم وميولهم ومعتقداتهم.

نموذج التأثير المحدود للإعلام وعلاقته بالعوامل الانتقائية (الوسيلة)

• **٢- التصور والتفسير والادراك الانتقائي:** ويتمثل بتصور الناس وتفسيرهم للرسائل وفقا لذواتهم ومصالحهم. إذ ان الرسالة الإعلامية محكومة بماذا يريد ان يتصور الفرد أو يدركه؟ او ما فائدة الرسالة الإعلامية له؟ او ما توقعاته للجزء الاجتماعي او المادي نتيجة لتصوراته وادراكه؟ فاختلاف الناس عن بعضهم سواء من ناحية المقدرة العقلية ام النفسية ام الجسدية، يحتم وجود اختلافات في مدارك الناس وبالتالي في قدرتهم على تفسير المعلومات الواردة لهم من المحيط فالناس يحلون المعلومات الواردة لهم ويفسرونها بشكل يختلف من فرد الى اخر تبعا للمعارف والاعتقادات والمواقف المخترنة لديهم اصلا في نظام معارفهم.

• **٣- التذكر الانتقائي:** يرتبط التذكر بالعملية السابقة فالفرد يتذكر ما يتصوره ويدركه او ما يحب تصوره، أكثر من تذكره ما لا يحبه. فبسبب الادراك الانتقائي فإن الفرد يتذكر فقط الأشياء والمعلومات التي تؤكد أفكاره وتتفق معها، فإذا كانت الأفكار المطروحة تتفق مع شخصية المتلقي ومعتقداته واراءه وافكاره، فإنه قد يتذكرها جميعا، وإذا كانت هذه الأفكار تختلف مع طبيعة معتقداته وافكاره، فإنه قد يلغونها من عقله تماما ولا يستعيدها، وهذه العملية تسمى بالتذكر الانتقائي.

يعد هذا المنظور مسؤولاً ومسؤولية مباشرة عن التحول عن نظرية الرصاصة والتأثير المباشر. وتعد الدراسات التي قام بها علماء النفس وعلماء النفس الاجتماعي، عاملاً مباشراً في تطوير منظور الاختلافات او الفروقات الفردية.

ويشير هذا المنظور الى ان الافراد يختلفون اختلافاً بينا عن بعضهم في تركيب شخصياتهم وتكوينهم النفسي، وقد تأصلت هذه الاختلافات جزئياً مع الموروثات البيولوجية المعطاة للإنسان منذ لحظات الحياة الأولى. غير أن هذه الاختلافات تتعمق وتزداد بسبب الفروقات في مستوى التعليم الذي يناله المرء. إذ ينشأ الافراد تحت ظروف مختلفة يتعرضون فيها بطبيعة الحال لوجهات نظر مختلفة. ومن بيئات التعلم هذه، يكتسب الافراد مجموعة من المواقف والقيم والمعتقدات تشكل وتكون بنيتهم الشخصية - النفسية، وتسمها بسمات تجعل من كل فرد شخصاً مميزاً ومختلفاً عن الآخرين. كما ان متغيرات الشخصية المكتسبة من المحيط الاجتماعي (البيئة) كانت عاملاً مهماً في الاعتقاد بوجود فروقات في الادراك من فرد الى اخر.

لقد وجد العلماء أن كل شخص يتمتع بملح سيكولوجي مختلف عن الآخرين، واكتشفوا ان شخصية الانسان كخصائمه مختلفة عن الآخرين جميعاً، وان كل فرد يمتلك بنية معرفية خاصة به، كما يمتلك حاجات وميولاً واتجاهات وقدرات خاصة به.. والمسألة الأساسية في هذه الأبحاث، معرفة ما إذا كانت البنية المعرفية متوارثة لدى الانسان كجزء من تركيبه الجيني، ام انها يتم اكتسابها من البيئة الاجتماعية المعاشة؟ وكيف تترك الخبرات المكتسبة من البيئة الاجتماعية تأثيراتها المستمرة على الفرد، وأنواع الاستجابات التي تصدر عن الفرد تجاه بيئته الخارجية؟ ولان لكل فرد خبراته المتعلمة عن طريق تعايشه في بيئته المتفردة، فان ذلك يتيح له عدداً كبيراً من الفوارق الفردية، ما دفع علماء النفس الى البحث في الخصائص الجسمية والعقلية، والانفعالية، ذلك أن دراسة الافراد وما بينهم من فوارق في مستويات الذكاء والاستعدادات الشخصية والقدرات العقلية يعني ان هؤلاء الافراد ليسوا متساوين في الادراك أو التفكير أو التعلم.

وقد كشفت الدراسات التجريبية بشأن الادراك الإنساني عن أن القيم والحاجات والمعتقدات والمواقف تلعب دورا مؤثرا في تقرير الكيفية التي يتم بها اختيار منبه ما من المحيط وفي الكيفية التي يعطى بها هذا المنبه معنى مميزا له ولذلك فان نتيجة مهمة يحققها التعلم الإنساني هي اكتساب عادات ثابتة فيما يتعلق بادراك المرء للأحداث التي تقع في ذلك المحيط. لذا يختلف الادراك من شخص الى اخر حسب طبيعة تركيب شخصية الفرد نفسه.

لذا يمكن القول ان الفوارق الفردية وما لها من دور في تشكيل استجابات الافراد، كان هو الموجه الأكبر في الأبحاث الخاصة بوسائل الاعلام، إذ كانت الفكرة الأساسية هي ان الفوارق الفردية في البنى النفسية والادراكية لأفراد الجمهور هي مفاتيح تكوين اهتمامهم بوسائل الاعلام كما ان ادراك تأثير الفروق الفردية وعلاقته بالسلوك المرتبط بوسائل الاعلام، أدى الى بداية منظور جديد للعلاقة بين الجماهير ووسائل الاعلام، وقد مثل ذلك تحولا من رؤية الجماهير على انها عنصر سلبي غير فعال إلى رؤيتها على كونها فعالة في انتقائها لمضامين وسائل الاعلام.

شكراً لحسن الاستماع